الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما حكاه الله عزَّ وجلَّ هنا: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[1].

فالمراد بالمعيَّة هنا معية النصر والعصمة من الأعداء.

وأمَّا قوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾؛ فقد تقدَّم الكلام عليه، وأنَّه خطابٌ لموسى وهارون عليهما السلام أن لا يخافا بطش فرعون بهما؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ معهما بنصره وتأييده.

وكذلك بقيَّة الآيات يخبر الله فيها عن معيته للمتَّقين الذين يراقبون الله عزَّ وجلَّ في أمره ونهيه، ويحفظون حدوده، وللمحسنين الذين يلتزمون الإحسان في كل شيء، والإحسان يكون في كل شيء بحسبه، فهو في العبادة - مثلًا - أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإنْ لم تكن تراه فإنَّه يراك؛ كما جاء في حديث جبريل عليه السلام[2].

وكذلك يخبر عن معيَّته للصابرين الذين يحبسون أنفسهم على ما تكره، ويتحمَّلون المشاقَّ والأذى في سبيل الله وابتغاء وجهه؛ صبرًا على طاعة الله، وصبرًا عن معصيته، وصبرًا على قضائه.

[إثبات صفة الكلام]

(وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ۝٨٧﴾ [النساء:٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ۝١٢٢﴾ [النساء:١٢٢]، ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾

---

(١) رواه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١)، بألفاظ متقاربة.

(٢) سبق تخريجه (ص:٩٠).

[المائدة:١١٦]، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾، ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٥٣]، ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾[الأعراف:١٤٣]، ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾[مريم:٥٢]، وَقَوْله: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الشعراء:١٠]، ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾[الأعراف:٢٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾[القصص:٦٥]).

تضمَّنت هذه الآيات إثبات صفة الكلام لله عزَّ وجلَّ.

وقد تنازع الناس حول هذه المسألة نزاعًا كبيرًا:

فمنهم من جعل كلامه سبحانه مخلوقًا منفصلًا منه، وقال: إنَّ معنى (متكلِّم): خالقٌ للكلام. وهم المعتزلة.

[الكُلَّابية]

ومنهم من جعله لازمًا لذاته أزلًا وأبدًا، لا يتعلَّق بمشيئته وقدرته، ونفى عنه الحرف والصوت، وقال: إنَّه معنى واحد في الأزل. وهم الكُلَّابيَّة[1] والأشعرية.

ومنهم مَن زعم أنَّه حروفٌ وأصواتٌ قديمةٌ لازمة للذَّات، وقال: إنَّها

---

(١) هم أتباع عبد الله بن سعيد بن كُلاّب، وهم يزعمون أن صفاته تعالى: لا هي هو، ولا غيره، ويقولون: إن أسماء الله هي صفاته، ولم يفرقوا بين صفات الذات وصفات الأفعال.
انظر: «الصواعق المرسلة» لابن القيم (١/٢٣١).

مقترنة في الأزل، فهو سبحانه لا يتكلم بها شيئًا بعد شيء. وهم بعض الغلاة.

ومنهم من جعله حادثًا قائمًا بذاته تعالى، ومتعلِّقًا بمشيئته وقدرته، ولكن زعم أنَّ له ابتداء في ذاته، وأنَّ الله لم يكن متكلِّمًا في الأزل. وهم الكرَّامية[١]. [الكرَّامية]

ويطول بنا القول لو اشتغلنا بمناقشة هذه الأقوال وإفسادها، على أنَّ فسادها بيِّنٌ لكل ذي فهمٍ سليمٍ، ونظرٍ مستقيمٍ.

وخلاصةُ مذهب أهل السُّنَّة والجماعة في هذه المسألة أنَّ الله تعالى لم يزل متكلِّمًا إذا شاء، وأنَّ الكلام صفة له قائمة بذاته، يتكلَّم بها بمشيئته وقدرته، فهو لم يزل ولا يزال متكلِّمًا إذا شاء، وما تكلَّم الله به فهو قائمٌ به ليس مخلوقًا منفصلًا عنه؛ كما تقول المعتزلة، ولا لازمًا لذاته لزوم الحياة لها؛ كما تقول الأشاعرة؛ بل هو تابعٌ لمشيئته وقدرته.

والله سبحانه نادى موسى بصوتٍ، ونادى آدم وحواء بصوتٍ، وينادي عباده يوم القيامة بصوتٍ، ويتكلَّم بالوحي بصوتٍ، ولكن الحروف والأصوات التي تكلَّم الله بها صفة له غير مخلوقة، ولا تشبه أصوات المخلوقين وحروفهم[٢]؛ كما أنَّ علم الله القائم بذاته ليس مثل علم عباده؛

---

(١) هم أتباع أبي عبد الله محمد بن كرَّام السجستاني، المتوفى سنة (٢٥٥هـ)، وهم مشبِّهة مجسِّمة مرجئة، ينقسمون إلى اثنتي عشرة فرقة.

(٢) (فيه نظر من وجهين الأول: جمع الصوت فإن ظاهره أن لله أصواتاً متنوعة وهذا ما لا سبيل إلى إثباته أو نفيه والوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم: فينادي بصوت. ولم يرد أصوات =

فإنَّ الله لا يماثل المخلوقين في شيء من صفاته.

والآيتان الأوليان هنا - وهما من سورة النساء - تنفيان أن يكون أحدٌ أصدقَ حديثًا وقولًا من الله عزَّ وجلَّ، بل هو سبحانه أصدق من كل أحدٍ في كل ما يخبر به، وذلك لأنَّ علمه بالحقائق المخبرِ عنها أشمل وأضبط، فهو يعلمها على ما هي به من كل وجه، وعلم غيره ليس كذلك.

وأما قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى﴾ إلخ؛ فهو حكايةٌ لما سيكون يوم القيامة من سؤال الله لرسوله وكلمته عيسى عمَّا نسبه إليه الَّذين ألَّهوه وأمه من النصارى من أنَّه هو الذي أمرهم بأن يتَّخِذوه وأمَّه إلهينِ من دون الله.

وهذا السؤال لإظهار براءة عيسى عليه السلام، وتسجيل الكذب والبهتان على هؤلاء الضالِّين الأغبياء.

وأمَّا قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾؛ فالمراد صدقًا في أخباره، وعدلًا في أحكامه؛ لأنَّ كلامه تعالى إمَّا أخبار، وهي كلها في غاية الصدق،

= بلفظ الجمع فإن أراد بالجمع الآحاد أي أنه جمعه باعتبار آحاده أو أراد به اختلاف صفاته فتارة يكون مناداة وتارة مناجاة كما في قوله: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢] فهذا صحيح، الثاني: قوله إن الحروف التي تكلم الله بها لا تشبه حروف المخلوقين، فإننا نعلم أن كلام الله هو الحروف والمعاني هذا مذهب أهل السُّنَّة ومن المعلوم أن الحروف التي في القرآن هي الحروف التي تكلم الله بها وهي أحرف المخلوقين التي يكون العرب منها لغتهم وكلامهم و لا ضرر في إثبات كلام الله بهذه الحروف التي يتكلم الناس بها فإن هذا هو المعقول من قولنا إن كلام الله هو الحروف والمعاني وإلا لكانت هذه الحروف عبارة أو بدلًا عن حروفٍ أخرى لا نعلمها فتخرج بذلك عن أن تكون كلام الله وهذا خلاف مذهب أهل السُّنَّة). (ابن عثيمين)

وإمَّا أمر ونهي، وكلها في غاية العدل الذي لا جور فيه؛ لابتنائها على الحكمة والرحمة.

والمراد بالكلمة هنا الكلمات؛ لأنَّها أُضيفت إلى معرفة، فتفيد معنى الجمع؛ كما في قولنا: رحمة الله ونعمة الله.

وأما قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ وما بعدها من الآيات التي تدل على أنَّ الله قد نادى موسى وكلمه تكليمًا، وناجاه حقيقة من وراء حجاب، وبلا واسطة ملَكٍ؛ فهي تردُّ على الأشاعرة الذين يجعلون الكلام معنى قائمًا بالنفس؛ بلا حرف، ولا صوت!

فيقال لهم: كيف سمع موسى هذا الكلامَ النفسيَّ؟

فإنْ قالوا: ألقى الله في قلبه علمًا ضروريًّا بالمعاني التي يريد أن يكلِّمَه بها؛ لم يكن هناك خصوصية لموسى في ذلك.

وإنْ قالوا: إنَّ الله خلق كلامًا في الشجرة أو في الهواء، ونحو ذلك؛ لزم أن تكون الشجرة هي التي قالت لموسى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه:١٢].

وكذلك تردُّ عليهم هذه الآيات في جعلهم الكلام معنى واحدًا في الأزل، لا يحدث منه في ذاته شيءٌ، فإنَّ الله يقول: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾؛ فهي تفيد حدوث الكلام عند مجيء موسى للميقات، ويقول: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾؛ فهذا يدل حدوث النداء عند جانب الطور الأيمن. والنداء لا يكون إلا صوتًا مسموعًا.

وكذلك قوله تعالى في شأن آدم وحواء: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ الآية؛ فإنَّ هذا النداء لم يكن إلا بعد الوقوع في الخطيئة، فهو حادث قطعًا.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ إلخ؛ فإنَّ هذا النداء والقول سيكون يوم القيامة. وفي الحديث: «ما من عبدٍ إلَّا سيكلِّمُهُ الله يومَ القيامة ليس بينَهُ وبينَه تَرجمان»[١].

(﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦]، ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة:٧٥]، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ﴾ [الفتح:١٥]، ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الكهف:٢٧]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾[النمل:٧٦]، ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام:٩٢، ١٥٥]، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الحشر:٢١]، ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ

---

(١) رواه البخاري (٦٥٣٩)، ومسلم (١٠١٦) بلفظ: ما منكم من أحدٍ إلا سيكلمه الله ... و(تَرجمان)؛ بفتح التاء والجيم، وضم الجيم (تَرجُمان)، وبضم التاء والجيم (تُرجُمان)؛ ثلاث لغات صحيحة. انظر: «الصحاح» (مادة: ر ج م).

﴿مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝١٠٢ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ۝١٠٣﴾ [النحل: ١٠١-١٠٣]).

[القرآن كلام الله]

قوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ...﴾ إلخ؛ هذه الآيات الكريمة تفيد أنَّ القرآن المتلوَّ المسموع المكتوب بين دفَّتي المصحف هو كلام الله على الحقيقة، وليس فقط عبارة أو حكاية عن كلام الله؛ كما تقول الأشعريَّة(١).

وإضافته إلى الله عزَّ وجلَّ تدلُّ على أنَّه صفةٌ له قائمة به، وليست كإضافة البيت أو الناقة؛ فإنَّها إضافة معنى إلى الذات، تدلُّ على ثبوت المعنى لتلك الذات؛ بخلاف إضافة البيت أو الناقة؛ فإنَّها إضافة أعيان، وهذا يردُّ على المعتزلة في قولهم: إنَّه مخلوق منفصلٌ عن الله.

ودلَّت هذه الآيات أيضًا على أن القرآن منزَّلٌ من عند الله، بمعنى أنَّ الله تكلَّم به بصوتٍ سمعه جبريل عليه السلام، فنزل به، وأدَّاه إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما سمعه من الربِّ جل شأنه.

وخلاصة القول في ذلك: أنَّ القرآن العربي كلام الله، منزَّلٌ، غير مخلوق، منه بدأ، وإليه يعود، والله تكلَّم به على الحقيقة، فهو كلامه حقيقة لا كلام غيره، وإذا قرأ الناس القرآن أو كتبوه في المصاحف لم يخرجه ذلك

(١) (المعروف عن الأشعرية أنهم يقولون إنه عبارة وأن الذين يقولون إنه حكاية هم الكلابية وهو ما ذكره المؤلف الشارح ص٢٢١). (ابن عثيمين)

عن أن يكون كلام الله؛ فإنَّ الكلام إنَّما يضاف حقيقةً إلى مَن قاله مبتدئًا، لا إلى مَن بلغه مؤدِّيًا، والله تكلَّم بحروفه ومعانيه بلفظ نفسه، ليس شيء منه كلامًا لغيره، لا لجبريل، ولا لمحمد، ولا لغيرهما، والله تكلم به أيضًا بصوت نفسه، فإذا قرأه العباد قرؤوه بصوت أنفسهم، فإذا قال القارئ مثلاً: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:٢]؛ كان هذا الكلام المسموع منه كلام الله، لا كلام نفسه، وكان هو قرأه بصوت نفسه لا بصوت الله.

وكما أنَّ القرآن كلام الله، فكذلك هو كتابه؛ لأنَّه كتبه في اللوح المحفوظ، ولأنَّه مكتوبٌ في المصاحف؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨﴾ [الواقعة:٧٧-٧٨]. وقال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝٢٢﴾ [البروج:٢١-٢٢]. وقال: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾ [عبس:١٣-١٦].

والقرآن في الأصل مصدرٌ كالقراءة؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾ [الإسراء:٧٨].

ويراد به هنا أن يكونَ عَلَمًا على هذا المنزَّل من عند الله، المكتوب بين دفَّتي المصحف، المتعبَّد بتلاوته، المتحدَّى بأقصر سورة منه.

وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ يدلُّ أنَّ ابتداء نزوله من عند الله عزَّ وجلَّ، وأنَّ روح القدس جبريل عليه السلام تلقَّاه عن الله سبحانه بالكيفيَّة التي يعلمها.

(وَقَوْلُهُ: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴾ [المطففين: ٢٣،٣٥]، ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس:٢٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [ق:٣٥]، وَهَذَا الْبَابُ فِي كِتَابِ اللهِ كَثِيرٌ، مَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ طَالِبًا لِلْهُدَى مِنْهُ؛ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الْحَقِّ).

[إثبات رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة]

قوله: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ... ﴾ إلخ؛ هذه الآيات تثبت رؤية المؤمنين لله عزَّ وجلَّ يوم القيامة في الجنَّة.

وقد نفاها المعتزلة؛ بناء على نفيهم الجهة عن الله؛ لأنَّ المرئي يجب أن يكون في جهة من الرائي، وما دامت الجهة مستحيلة، وهي شرط في الرؤية؛ فالرؤية كذلك مستحيلة.

واحتجُّوا من النقل بقوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ [الأنعام:١٠٣]، وقوله لموسى عليه السلام حين سأله الرؤية: ﴿ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ [الأعراف:١٤٣].

وأما الأشاعرة؛ فهم مع نفيهم الجهة كالمعتزلة يثبتون الرؤية، ولذلك حاروا في تفسير تلك الرؤية، فمنهم مَن قال: يرونه من جميع الجهات، ومنهم من جعلها رؤية بالبصيرة لا بالبصر، وقال: المقصود زيادة الانكشاف والتجلي حتى كأنَّها رؤية عين.

وهذه الآيات التي أوردها المؤلِّف حجة على المعتزلة في نفيهم الرؤية؛